

1- الجدارية : قراءة في العنوان :

كتب محمود درويش ديوانه "جدارية محمود درويش" سنة 1999 عندما كان في صراع مع المرض ، فظن أنها النهاية ، وبأن الموت بات قريبا منه ، فأرادها لتحكي سيرته وتخلد اسمه : " كنت أعتقد أنني أكتب وصيتي ، وبأن هذا آخر عمل شعري أكتبه ، وما دمت أكتب وصيتي الشعرية ، فعلي أن أستعير وأستخدم كل أسلحتي الشعرية في الماضي والحاضر ... لقد حاولت أن أضع في هذه القصيدة كل معرفتي وأدواتي الشعرية معا ، باعتبارها معلقتي " ¹ .

فالقصيدة منذورة لتعلق على جدار ، ومن ثم اكتسبت صبغة الجدارية ، فكانت معلقة فريدة في هذا الزمن ، لأنها تخترق كل نواميس اللحظة ، وتصور حالة الشاعر الذي تمسك بالمكان ² :

جدار البيت لي ...

واسمي وإن أخطأت لفظ اسمي

بخمسة أحرف أفقية التكوين لي ³

والمتمأمل في عنوان القصيدة ، يلاحظ أن الشاعر أضاف اسمه إلى "جدارية" فكان العنوان : " جدارية محمود درويش " ، فالشاعر لا يريد أن يخلد قصيدته ، فحسب ، بل يريد أن يخلد اسمه على عادة فحول شعراء العرب أصحاب المعلقات ، وهذا ما يؤكد الشاعر في القصيدة ذاتها ، يقول :

لا شيء يبقى سوى اسمي المذهب

بعدي ⁴

¹ محمد أحمد القضاة : الظواهر الأسلوبية في جدارية محمود درويش ، الموقع الإلكتروني لمجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ، م 2 ، ع 2 ، ص 246

² ينظر: المرجع السابق ، ص 246

³ محمود درويش : جدارية محمود درويش ، رياض الريس ، لبنان ، ط 2 ، 2001 ، ص 102

⁴ المصدر السابق ، ص 90

فهو يريد لاسمه أن يكتب بالذهب ويخلد حتى بعد زوال كل الأشياء من
على الأرض ، يقول :

باطل ، باطل الأباطيل ... باطل

كل شيء على البسيطة زائل

1455 مركبة

و 12.000 فرس

تحمل اسمي المذهب من

زمن نحو آخر¹

ونجد الشاعر يؤكد على اسمه في العديد من مقاطع القصيدة ، إذ يفتتحها
بقوله :

هذا هو اسمك

قالت امرأة

وغابت في الممر اللولبي²

ويتكرر هذا المقطع أكثر من مرة ، وكأن الشاعر يريد أن يقول بأنه لا
يمكن لشيء أن يخلد بعد موته أكثر من اسمه .

ومن ثم فإن الجدارية تطل علينا لتدخلنا في عالم محمود درويش وتطرح
أسئلته وسيرته الذاتية ، وإحساسه بالخلود والقوة ، وهو في مواجهة الموت ، الذي
لم يستسلم له ، ولأنه شاعر أراد أن يخلد تلك اللحظة ، وأن تمارس مفعولها بين
الناس ، فتكون أداة للثورة والتغيير و الحرية .

¹ محمود درويش : جدارية محمود درويش ، ص 88

² المصدر السابق ، ص9

2- دلالة اللون في جدارية محمود درويش :

يخضع المشهد الشعري في سبيل تشكيله الرؤيوي والجمالي إلى جملة من المؤثرات ، يؤلف بعضها النسيج الباطني العميق للنص ، ويعمل الآخر على تحديد هوية الخطاب الشعري التخيلية و معادلاته الخارجية ، من أجل أن تشترك في النهاية في خلق نظم النص وقوانينه ، واللون واحد من هذه المؤثرات إذ يعمل في توجيه شكل الخطاب وفعاليتها الرؤيوية¹ .

واللون باعتباره علامة لغوية فإنه يسمح بتوليد دلالات إيحائية ، وذلك من خلال السياق أو شبكة العلاقات التي يندرج فيها² .

والشاعر محمود درويش واحد من الشعراء الذين تمكنوا من توظيف اللون بتقنيات أسلوبية متفاوتة ، و في ديوانه " جدارية " نجده يوظف العديد من الألوان بدرجات متفاوتة ، ويأتي اللون الأبيض في الطليعة ، وهو يدل في الغالب على الصفاء والنقاء والوضوح والطهر والبراءة ، فهو مصدر للتفاؤل عند كثير من الشعوب³ ، ونجد الشاعر محمود درويش يستعمله للدلالة على هذه المعاني في الكثير من أعماله مثل " الشبايبك بيضاء ... بيضاء " و " جندي يحلم بالزنابق البيضاء " و " لا راية بيضاء في بيروت " .

غير أن اللون الأبيض في " جدارية " لم يعد يدل على هذه المعاني إنما ارتبط بالموت ، وهو نفس المدلول الذي ارتبط به في قصيدته " أعراس " ، من قبل ، يقول : " يجيء الموت أبيض " . ومحمود درويش في جداريتيه يقترب من النهاية أي أنه بين الحياة والموت ، حيث وجد اللون الأبيض ليدل على هذه اللحظة :

وكل شيء أبيض

¹ ينظر : محمد صابر عبيد : مرايا التخيل الشعري ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط1 ، 2002 ، ص 223
² ينظر : سعيد جبر محمد أبو خضرة : تطور الدلالات اللغوية في شعر محمود درويش ، دار الفارس للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط1 ، 2001 ، ص 98
³ ينظر : المرجع السابق ، ص 107

البحر المعلق فوق سقف غمامة
 بيضاء ، واللاشيء أبيض في
 سماء المطلق البيضاء . كنت ، ولم
 أكن : فأنا وحيد في نواحي هذه
 الأبدية البيضاء . جئت قبيل ميعادي
 فلم يظهر ملاك واحد ليقول لي :
 " ماذا فعلت ، هناك في الدنيا ؟ "
 ولم أسمع هتاف الطيبين ، ولا
 أنين الخاطئين ، أنا وحيد في البياض
 أنا وحيد ...¹

ويقول الشاعر :

أرى السماء هناك في متناول الأيدي
 ويحملني جناح حمامة بيضاء صوب
 طفولة أخرى²

فالشاعر ينتقل إلى ذلك العالم الجديد المليء بالبياض على جناح حمامة
 بيضاء ، وهي دليل على الطهر والبراءة ، فهي تحمله صوب طفولة أخرى . أي
 أنه يرى في عالمه الجديد ؛ عالم الطفولة والبراءة . ويؤكد الشاعر على وجود
 البياض في كل شيء ، حتى المرأة - الممرضة - فهي تغيب في البياض :

¹ محمود درويش : جدارية محمود درويش ، ص 10
² المصدر السابق ، ص 9

هذا هو اسمك /

قالت امرأة

وغابت في ممر بياضها¹

ولعل ارتباط اللون الأبيض بالموت عند محمود درويش راجع إلى الثقافة الإسلامية ، إذ يكفن الميت بكفن أبيض ، وقد استحضر الشاعر الكفن في جداريته ، إذ يقول :

رأيت رفاقي الثلاثة ينتحبون

وهم

يخيطون لي كفنا²

غير أن قصيدة الشاعر أفلتت من هذا البياض الذي يسود كل شيء ، فهي لن تموت بل ستبقى حية دائما ، فأرضها ستظل خضراء :

خضراء ، أرض قصيدي خضراء عالية³

وهذا ما يؤكد الشاعر في كامل القصيدة ، إذ نجد هذا الشطر يتكرر خمس مرات في الصفحات (17 ، 21 ، 33 ، 41 ، 68) ، واللون الأخضر هو لون الانبعاث و الحياة ، فنجد الشاعر يربط بين هذا اللون وبين جلجامش رمز الخلود ، إذ يقول :

... سائرون على خطى

جلجامش الخضراء ، من زمن إلى زمن ...⁴

¹ محمود درويش : جدارية محمود درويش ، ص 21

² المصدر السابق ، ص 31

³ المصدر السابق ، ص 17

⁴ المصدر السابق ، ص 80

فطغيان اللونين الأبيض و الأخضر في جدارية محمود درويش دليل على الصراع بين الحياة والموت ، فالشاعر يؤكد على هذين اللونين دون سواهما .

3- الرؤيا والواقع في جدارية محمود درويش:

أقر العديد من النقاد في العصر الحديث بوجود الرؤيا في الشعر ، وهي تعطي الشاعر خيالا مجنحا ، فتجعله قادرا على خلق عوالم جديدة ، وله عبقرية شاذة تجعله يرى ما لا يرى و يسمع ما لا يسمع ، كما يصبح قادرا على الانفلات من أطر الزمان و المكان ، وعلى تخطيط حياة جديدة ، ورسم مثل عليا¹ ، فالرؤيا نوع من الاتحاد بالغيب يتكشف عن صورة جديدة للعالم أو عن خلق جديد له ، يكشف عما هو خفي وراء الواقع ، فالشاعر - كما يرى أدونيس - عندما يكتب قصيدة يحيل العالم إلى شعر " يخلق له فيما يتمثل صورته القديمة صورة جديدة ، فالقصيدة حدث أو مجيء ، و الشعر تأسيس باللغة و الرؤيا : تأسيس عالم و اتجاه لا عهد لنا بهما من قبل ، لهذا كان الشعر تخطيا يدفع إلى التخطي"²

فالرؤيا إذن تجعل الشاعر يعيش في غربة فنية عن عالم القيم الفنية الموروثة أو التقليدية ، والحادثة تقاس بقدر ما يتضمنه شعره من قيم هذه الغربة ، أي قيم التجاوز و التخطي³ .

ذلك أن للشعر طبيعة خاصة تختلف عن طبيعة الواقع ، لذا وجب ألا يكون الشعر انعكاسا له ، حتى لا يخرج عن طبيعته و يصبح نسخة مكررة له فالتجربة الشعرية تجربة جمالية لا تعنى بحقائق الحياة في ذاتها لأنها غاية في ذاتها .

ومن هنا فإن الناقد مجدي فاخوري يرى بأن الشعر الذي يقتصر على الوصف التصويري للطبيعة ، أو على سرد الأحداث والمجريات يكاد لا يتعدى نطاق الرؤية ، وهو عنده أحط أنواع الشعر لأنه " يقتصر على استعراض

¹ ينظر : خليل أبو بهجة : الحداثة الشعرية ، ص 195

² رمضان الصباغ : في نقد الشعر العربي المعاصر ، ص 56

³ ينظر : ساندي سالم أبو سيف : قضايا النقد و الحداثة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 2005 ، ص 54

الجزئيات المرئية ، وهي مبذولة لكل ذي باصرة ، فأبي فضل للشاعر في التنبه إليها " ¹ .

و نازك الملائكة ترفض أن يكون الشعر وسيلة لغايات أخرى ، فليس الشعر صورة عن الواقع ، بل هو عالم مستقل و قيمته في ذاته ² .

و الشعر المعاصر باعتباره تخطيا للواقع و تعبيراً عن عالم جديد ، لا يعني أن الشعر ينفصل عن الواقع ، و يقطع كل صلته به ، فالشعر - كما يرى بلند الحيدري - ليس انعكاساً مرآوياً للواقع ، لكنه ليس هروباً منه " فإذا جاز لنا أن نأخذ على بعض أدبنا القديم كونه وقع أسير واقعه في القبيلة و العائلة و الطائفة .. جاز لنا أن نأخذ على الكثير من أدبنا اليوم انقطاع أسبابه عن واقعنا . " ³

فالرؤيا ليست نقيض الواقع ، فهو البوابة التي تصلنا بالعالم الكبير الآخر ، وهو وسيلة لخلق هذا العالم ، الذي تتجسد فيه حقيقة الإبداع الشعري ⁴ .

لذا نجد صلاح عبد الصبور ينتقد تيارين كلاهما يفهم العلاقة بين الشعر و الواقع فهما خاطئاً ، الأول يريد من الشعر أن يكون خبزاً يومياً و الثاني يميل إلى التغامض و ادعاء التفلسف و التعمق ⁵ .

فالشعر إذن هو الوسيلة التي يجري بها الكشف عن ذلك الواقع ⁶ ، أي الواقع الذي يحلم به الشاعر المعاصر الذي يستشرف المستقبل و يتطلع إليه .

و يؤكد عبد الوهاب البياتي الذي يعده صلاح فضل شاعر الرؤيا في العصر الحديث على أهمية فهم الواقع ، لأن الفهم الموضوعي للتناقضات التي تسود قانون الحياة ، و فهم و اكتشاف منطق حركة التاريخ و التفاعل مع أحداث

¹ علي جعفر العلاق : في حادثة النص الشعري ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط1 ، 2003 ، ص 16

² ينظر : فاتح علاق : مفهوم الشعر عند رواد الشعر العربي الحر ، ص 154

³ المرجع السابق ، ص 155

⁴ ينظر : ساندي سالم أبو سيف : قضايا النقد والحداثة ، ص 63

⁵ ينظر : فاتح علاق : المرجع السابق ، ص 157

⁶ ينظر : عبد العزيز إبراهيم : شعرية الحداثة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2005 ، ص 87

العصر يمنح الشاعر الرؤيا الشاملة و القدرة على التجاوز و التوجه إلى المستقبل¹ .

و هذا ما ذهب إليه غالي شكري إذ يرى بأن الرؤية الفكرية للواقع و الفن هي التي تمنح الأولوية في عناصر التجربة الشعرية للعنصر الاجتماعي و الدلالة السياسية ، و يرى بأن هذه الرؤية الفكرية في حد ذاتها أحد عناصر الرؤيا الحديثة في الشعر ، و الرؤيا الحديثة عنده هي التي تستمد ملامحها ، " من جماع التجربة الإنسانية التي يعيشها الشاعر في عالمنا المعاصر بتكوينه الثقافي و السيكلوجي و الاجتماعي ، و خبراته الجمالية في الخلق و التدوق ، و معدل تجاوبه أو رفضه للمجتمع ، و طبيعة العلاقة بينه ، و بين أسرار هذا الكون " ²

ومن هنا فإن الشعر يتجاوز الواقع لكنه لا ينفصل عنه كما لا ينفصل أبداً عن شخصية الشاعر ، وهذا ما ألح عليه يوسف الخال إذ يرى بأن الشعر "أصبح تعبيراً عن رؤيا شخصية للشاعر بعد أن كان مجرد كلام موزون مقفى" ³ .

ورؤيا الشاعر وسيلة فعالة في جعل الناس أكثر شعوراً ووعياً بالحياة ، فالشاعر الكبير هو من جمع رؤى عصره كلها ، أما من لا يمتلك رؤيا لواقع حياته وروح عصره فليس بشاعر ، لذلك فخالدة سعيد ترى بأن " الشاعر المبدع الخلاق هو من امتلك رؤيا يضعنا بواسطتها أمام المصير البشري ، أمام التجربة البشرية المتجددة ، أمام هذا القلق الذي يهز كياننا ويجري في عروقنا ، وبالتالي فالشاعر مطالب من خلال رؤاه بالعمل على الانفعالات والمشاكل الجديدة ، وبالبحث عن أفق إنساني وبمعايشة عميقة للقلق الذي يعد حافز الإبداع ومولد حرارة الخلق الفني " ⁴ .

و لعل الشاعر محمود درويش من أكثر الشعراء العرب المعاصرين الذين يؤكدون على عدم انفصال الشعر عن الواقع فهو يصرح قائلاً : " و أنا أعتبر أن

¹ ينظر : فاتح علاق : مفهوم الشعر عند رواد الشعر العربي الحر ، ص 114

² علي جعفر العلاق : في حدائث النص الشعري ، ص 16

³ فاتح علاق : المرجع السابق ، ص 116

⁴ خليل أبو جهجة : الحدائث الشعرية ، ص 197

المصدر الأول للشعر في تجربتي الشخصية هو الواقع ، و أخلق رموزي من هذا الواقع ¹ و عن علاقة شعره بالواقع يقول : " لا أكتب شعرا لأغير الواقع ، ولكن الواقع أرغمني على الكتابة ، استعبدني من شدة ما أدلني ، من كثرة ما كان واقعا وقعت فيه ، ولكن هذه العبودية تمنحني الحرية ، فحين كتبت وجدته يختلف عن نقيضه ، ولكن نقيضه ليس إلا هو متحولا ، هذه هي علاقتي بمعادلة الواقع التي أستخرج منها حريتي من جهة ، و قابلية الواقع للتححرر و التغيير من جهة أخرى ² ، فالواقع إذن هو الذي يجعل من الشاعر محمود درويش رؤياويا فهو الذي يدفعه للكتابة ، لكنه لا يعكسه كما هو ، إنما يجعله منطلقا للتححرر و التغيير فالنص يتفاعل مع الواقع ، ويؤثر فيه سلبا و إيجابا ، و يتأثر به ، و لهذا فهو نتاج الواقع الاجتماعي ، لكنه يختلف عنه في الماهية ³ .

استمدت جل أعمال الشاعر محمود درويش مرجعيتها من واقع فلسطين و ما يعاينه شعبها جراء الاحتلال الصهيوني ، لذا كان الشاعر ناقما على تلك الأوضاع ، معبرا عنها بشكل حدائي تبرز معه رؤياه بشكل جلي ، فكان ملتزما بقضايا وطنه ⁴ ، وهذا ما تشير إليه الكثير من أعماله ، مثل قصيدة "إلى القارئ" من ديوان (أوراق الزيتون 1964) ، حيث يقول :

الزنبقات السود في قلبي

و في شفتي...الذهب

من أي غاب جننتي

يا كل صلبان الغضب ؟

بايعت أحزاني

¹ مازن النجار : نحت شعري مع محمود درويش ، ملتنقى رابطة الوحدة الثقافية ، قسم النقد التطبيقي والدراسات النقدية ، www.tahawolat.com

² صلاح فضل : أساليب الشعرية المعاصرة ، ص 235

³ ينظر : عز الدين المناصرة : جمرة النص الشعري ، ص 43

⁴ ينظر : سعيد جبر محمد أبو خضرة : تطور الدلالات اللغوية في شعر محمود درويش ، ص 32

و صافحت التشرّد و السغب

غضب يدي ...

غضب فمي ...

و دماء أوردتي عصير من غضب !¹

و يقول في قصيدة " صوت من الغابة " من ديوان (عاشق من فلسطين
: (1966)

من غابة الزيتون

جاء الصدى ...

و كنت مصلوبا على النار !

أقول للغربان : لا تنهشي

فربما أرجع للدار

و ربما تشتي السما

ربما ...

تطفئ هذا الخشب الضاري²

و يبدو موقف الشاعر من قضية وطنه و تعلقه به بارزا من خلال قصيدة

"وطن" من ديوان (آخر الليل 1967) ، يقول :

علقوني على جدائل نخلة

و اشنقوني... فلن أخون النخلة !

¹ محمود درويش : الديوان ، دار العودة ، بيروت ، ط 78 ، 1981 ، ص 7

² المصدر السابق ، ص 112

هذه الأرض لي ... و كنت قديما

أحلب النوق راضيا و موله

وطني ليس حزمة من حكايا

ليس ذكرى ، و ليس حقل أهله

وطني ليس قصة أو نشيدا

ليس ضوءا على سوائف فلة

وطني غضبة الغريب على الحزن

و طفل يريد عيدا و قبلة¹

غير أن الشاعر لا يكتفي برصد ما هو واقع ليبقى أسير الماضي و الحاضر فحسب ، إنما يتطلع إلى المستقبل و ذلك من خلال بث رؤاه فيظهر بذلك جدل بين الواقع و الرؤيا ، يقول في قصيدة " أحمد الزعتر " من ديوان (أعراس 1977) :

أنا أحمد العربي - قال

أنا الرصاص البرتقال الذكريات²

فالشاعر يصور ماضي الصراعات و العنف داخل أرض البرتقال فلسطين كما يصور حاضرها المؤلم :

أنا البلاد و قد أنتت و تقمصتني³

ثم يصور المستقبل :

¹ محمود درويش : الديوان ، ص 235

² المصدر السابق ، ص 596

³ المصدر السابق ، ص 597

أنا الذهاب المستمر إلى البلاد¹

و هنا تبرز رؤيا الشاعر و تصور في الآن نفسه حركة الوعي التي
ستتحول إلى فعل حقيقي يؤسس الوجود المغير².

هو أحمد الكوني في هذا الصفيح الضيق

المتمزق الحالم

و هو الرصاص البرتقالي...البنفسجية الرصاصية

و هو اندلاع ضهيرة حاسم

في يوم حرية³

كما تظهر العلاقة بين الواقع و الرؤيا في ديوان " لماذا تركت الحصان
وحيدا " ، فالشاعر يحكي سيرته و معاناة شعبه دون أن يجعل أعماله منغلقة على
ذلك الواقع ، بل هي منفتحة دائما على الرؤيا التي تجعله متطلعا إلى واقع غير
ذلك الواقع ، فنجد أولى قصائد المجموعة "أرى شبحي قادما من بعيد " تنفتح على
الرؤيا ، حيث يستهل الشاعر قصيدته بقوله :

أطل كشرفة بيت ، على ما أريد⁴

ليتكبر هذا في كامل مقاطع القصيدة ، أي أن هذه الإطلالة تفارق الرؤية
لتدخل في " الرؤيا " ، مادامت متعلقة بإرادته " ما أريد " لا ببصرته ، أي أن هذه
الإطلالة هي عمل داخلي تخيلي .

و تأتي رؤيا الشاعر كرد فعل عما هو واقع أليم ، فقصيدة " أبد الصبار"
من نفس الديوان قائمة على شكل حوار بين أب و ابنه و هما يغادران أرضهما ،

¹ المصدر السابق ، ص 597

² ينظر : محمد لطفي اليوسفي : في بنية الشعر العربي المعاصر ، مؤسسة سراس للنشر ، تونس ، 1985 ، ص 72

³ محمود درويش : الديوان ، ص 599

⁴ محمود درويش : الأعمال الجديدة ، رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت ، ط 1 ، 2004 ، ص 277

لاجئان إلى مكان آخر ، حيث يفتح الابن الحوار بأسئلة تتم عن روح الطفولة ،
بينما تأتي أجوبة الأب لتؤكد على الضياع :

إلى أين تأخذني يا أبي

إلى جهة الريح يا ولدي ...¹

فالريح هنا دلالة على عدم الثبات و الاستقرار ، و تستمر أسئلة الطفل
إلى قصيدة أخرى " كم مرة ينتهي أمرنا ... " لتكشف قسوة الواقع و قسوة المنفى :

هل سنبقى ههنا يا أبي

تحت صفصافة الريح

بين السماوات و البحر ؟²

و يأتي جواب الأب مليئاً بالقهر و الأسى :

يا ولدي ! كل شيء هنا

سوف يشبه شيئاً هناك

سنشبه أنفسنا في الليالي

ستحرقنا نجمة الشبه السرمدية

يا ولدي !³

غير أن رؤيا الشاعر و تطلعه إلى المستقبل حين العودة إلى الوطن لا
تغيب أبداً و هذا ما نجده في قصيدة " إلى آخري و إلى آخره ... " حيث يستمر

¹ محمود درويش : الأعمال الجديدة ، ص 298

² المصدر السابق ، ص 304

³ المصدر السابق ، ص 304

حوار الأب و ابنه ، لكن نبرة الشاعر تختلف في هذه القصيدة عما كانت عليه في
سابقاتها ، يقول الشاعر على لسان الأب :

سنقطع عما قليل

غابة البطم و السنديان الأخيرة

هذا شمال الجليل

و لبنان من خلفنا

و السماء لنا كلها من دمشق

إلى سور عكا الجميل

- ثم ماذا ؟

- نعود إلى البيت¹

و يقول الشاعر على لسان الابن ، الذي سيواصل الدرب ليغير ما
هو كائن:

يا أبي هل تعبت

أرى عرقا في عيونك ؟

يا ابني تعبت أتحملي ؟

مثلما كنت تحملي يا أبي

و سأحمل هذا الحنين

إلى

¹ محمود درويش : الأعمال الجديدة ، ص 307

أولي و أوله

و سأقطع هذا الطريق إلى

آخري ... و إلى آخره !¹

وفي ديوان " جدارية محمود درويش " يبدو الارتباط وثيقا بين الرؤيا والواقع ، فالشاعر كتب ديوانه ليعبر عن تجربة متميزة ، فقد اخترق جدار الحياة ليقترب من الموت ، يقول :

لا الرحلة ابتدأت ولا الدرب انتهى²

فالشاعر يرى أن الموت قريب منه ، وبأن علاقته بواقعه تكاد تنقطع ، لذلك أراد لشعره أن يخلد ، فالموت لن ينال منه :

ألدك وقت لاختبار

قصيدي . لا . ليس هذا الشأن

شأنك . أنت المسؤول عن الطيني في

البشري ، لا عن فعله أو قوله³

والشعر في نظره فن كغيره من الفنون التي هزمت الموت ، واستطاعت الخلود :

هزمتك يا موت الفنون جميعها

هزمتك يا موت الأغاني في بلاد

الرافدين . مسلة المصري ، مقبرة الفراغة

¹ محمود درويش : الأعمال الجديدة ، ص 307

² محمود درويش ، جدارية محمود درويش ، ص 16

³ المصدر السابق ، ص 54

النقوش على حجارة معبد هزمتك

وانتصرت ، وأقلت من كمائنك

الخلود ...

فاصنع بنا ، واصنع بنفسك ما تريد¹

وتبرز رؤيا الشاعر عندما يخاطب الموت ليطلب منه أن ينتظره لينتهي
مراسيم الجنازة ، فهو يريد لها مميزة ليست كغيرها من الجنائز :

فيا موت ! انتظرنى ريثما أنهي

تدابير الجنازة في الربيع الهش ،

حيث ولدت ، حيث سأمنع الخطباء

من تكرار ما قالوا عن البلد الحزين

وعن صمود التين والزيتون في وجه

الزمان و جيشه . سأقول : صبوني

بحرف النون ، حيث تعب روحي

سورة الرحمن في القرآن . و امشوا

صامتين معي على خطوات أجدادي

ووقع الناي في أزلي . ولا

تضعوا على قبري البنفسج ، فهو

زهر المحبطين يذكر الموتى بموت

¹ محمود درويش ، جدارية محمود درويش ، ص 54

الحب قبل أوانه . وضعوا على

التابوت سبع سنابل خضراء إن

وجدت ، وبعض شقائق النعمان إن

وجدت .¹

فالشاعر لا يريد أن تكون جنازته عادية ، ولا يريد أن يوضع فوق
التابوت بنفسج ، فهو علامة للموت والفناء ، ويريد بدلا منه السنابل الخضراء
وشقائق النعمان ، فكلاهما رمز الحياة والاستمرار والتجدد ، فالشاعر إذن يريد أن
يخلد حتى بعد موته .

والشاعر و إن كان قد أفلت من شباك الموت هذه المرة ، فهو على يقين
بأنه لن يفلت مرة أخرى ، فالموت قدر لا بد منه :

وللموت وقت

وللصمت وقت

ولا شيء يبقى على حاله

كل نهر سيشربه البحر²

غير أنه لا يريد أن يموت لينتهي أمره ، إنما يريد أن تكون في موته
حياة أخرى :

.... لم

أرجع ، وقد طاشت سهامك مرة

إلا لأودع داخلي في خارجي

¹ محمود درويش ، جدارية محمود درويش ، ص 50

² المصدر السابق ، ص 90

وأوزع القمح الذي امتلأت به روعي
على الشحرور ، حط على يدي وكاهلي
وأودع الأرض التي تمتصني ملحا ، وتثرنني
حشيشا للحصان وللغزالة . فانتظرني
ريثما أنهى زيارتي القصيرة للمكان وللزمان¹

إن محمود درويش في جداريته ينطلق من الخاص وهي تجربته مع الموت إلى العام - وهي التجربة الجمعية الفلسطينية - فوجوده أمام الموت وانتصاره عليه بشعره ، هو انتصار وخلود المجتمع الفلسطيني لذلك نجد ضمير المتكلم " أنا " يتحول إلى " نحن " ، يقول :

ولم نزل نحيا كأن الموت يخطئنا
فنحن القادرين على التذكر قادرون
على التحرر ، سائرون على خطى

جلجامش الخضراء ، من زمن إلى زمن ...²

و سعي محمود درويش إلى الخلود عن طريق الإبداع إنما هو سعي شعب بأكمله ، و مادام الخلود قد انتصر في جدارية محمود درويش ، فسيظل شعب فلسطين خالدا و قادرا على تغيير عالمه ، وهذه هي الرؤيا التي أرادها محمود درويش من خلال نص الجدارية ، فصراعه الخاص مع الموت حمله إلى حالة الحصار الجمعي للشعب الفلسطيني .

¹ محمود درويش ، جدارية محمود درويش ، ص 64

² المصدر السابق ، ص 80

4- الرؤيا واللغة الشعرية في جدارية محمود درويش :

تشكل اللغة في الكتابة الشعرية ركنا هاما لا تنهض القصيدة بدونه ، فهي المقياس الأساسي الذي يميز بين الشعر و غيره من الكتابات الأخرى ، فهي موطن الهزة الذي يجسد الفعالية الشعرية و فنتتها ، ويعطي للقصيدة سحرها الجمالي ، و كيانها المادي ، فمعظم ما في القصيدة من جمال و معنى ، و فعالية لا يقيم إلا في لغتها الشعرية ¹ .

و لغة الشعر لا بد أن تكون لغة إشارية ، و الإشارية هنا ليست المطابقة بين الدال و المدلول لتحقيق الوظيفة الاتصالية ² ، إنما هي ذلك النوع الفني الذي يتفجر معناه مع كل تجربة فنية أو شعرية أثناء عملية الخلق الشعري ³ ، فالكلمة عندما توظف في النص الشعري تفقد صفتها المعجمية لتكتسب صفة إشارية تتيح لها تعدد المعنى و انفتاح الدلالة ، أي أنها ليست مجرد لفظ محدد المعنى ، بل هي عبارة عن حيز يتواجد فيه أكثر من احتمال ، غير أن الاستعمال المتعارف ، أي طريقة توظيف الكلمة في سياقات معتادة هو الذي يجعل دلالة ما تغطي على كل الاحتمالات ⁴ .

و لتحويل اللغة من طبيعتها العادية إلى طبيعتها الإشارية لابد من الخيال فهو أساس الخلق الشعري ⁵ ، و بواسطته يتمكن الشاعر من خداع نفسه فيريها مالا تراه ، ويصبح كلامه خارقا إذ يقوم على إثبات ما ينفيه العقل و يأباه ، فيصبح الشاعر بمثابة الرائي الذي يمضي باتجاه المجهول و يعيد ترتيب الأشياء ⁶ .

¹ ينظر : علي جعفر العلق : في حادثة النص الشعري ، ص 23

² ينظر : سعيد جبر محمد أبو خضرة : تطور الدلالات اللغوية في شعر محمود درويش ، ص 15

³ ينظر : أحمد الطريسي : النص الشعري بين الرؤية البيانية والرؤيا الإشارية ، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2004 ، ص 21

⁴ ينظر : محمد لطفي اليوسفي : في بنية الشعر العربي المعاصر ، ص 27

⁵ ينظر : أحمد الطريسي : المرجع السابق ، ص 22

⁶ ينظر : محمد لطفي اليوسفي : المرجع السابق ، ص 26

و اللغة رغم أهميتها في العمل الشعري ، لا يجب أن تكون غاية في ذاتها فيجهد الشاعر نفسه في الزخرفة و التتميق و الفخامة كما حدث في فترات الخمول الشعري الماضية من تراثنا العربي ، إنما يجب أن تكشف عبر بنائها الجليل الأسر رؤيا الشاعر¹ ، و الرؤيا لا تولد لتبحث عن العبارة اللغوية الملائمة لها ، إنما تخلق في رحم اللغة ذاتها² .

فالرؤيا الشعرية مرتبطة باللغة الشعرية ، و ما دامت الرؤيا تتجاوز الواقع و تخرج عن المألوف ، فلا بد للغة أن تكون غير عادية ، لذلك فإن لغة الشعر تبنى على الانزياحات و الخروقات .

لقد اتفق جل النقاد العرب المعاصرين على ارتباط اللغة بالرؤيا ، وضرورة كل منهما في تأسيس شعرية النص ، يقول أدونيس : " الشعر تأسيس باللغة و الرؤيا " ³ . أما عبد الوهاب البياتي ، فيقول : " إن الشعر هو رؤيا مضافا إليها اللغة و التعبير ، و من ثم فإن اللغة ليست منفصلة عن تجربة الشاعر و عالمه ، فهي جوهر تجربته ، الشاعر بدون ذلك يشبه حالة العالم عندما كان في الحالة السديمية قبل أن تتكون ملامحه " ⁴ . فعبد الوهاب البياتي يتفق مع أدونيس في ضرورة كل من الرؤيا و اللغة في التأسيس للشعر ، غير أن البياتي يضيف عنصرا آخر لا ينفصل عن اللغة و هو التجربة ، و هو ما لم يولده أدونيس أهمية ، و يتفق خليل حاوي مع البياتي في طرحه يقول : " التعبير نفسه يجب أن يتولد من طبيعة التجربة " ⁵ . فالشعر عند خليل حاوي و البياتي لا يجسد الرؤيا إلا انطلاقا من التجربة و إلا كان براعة ذهنية و مهارة لغوية .

إن غياب التجربة عن الشعر يسمح بطغيان المجرى و الذهني و الافتقار إلى الحسي و الملموس ، لذلك و جب أن تكون لغة القصيدة تعبيراً عن رؤيا كلية

¹ ينظر : علي جعفر العلق : في حداثة النص الشعري ، ص 23

² ينظر : صلاح فضل : أساليب الشعرية المعاصرة ، ص 236

³ فاتح علق : مفهوم الشعر عند رواد الشعر العربي الحر ، ص 128

⁴ المرجع السابق ، ص 128

⁵ المرجع نفسه ، ص 128

يتوحد فيها الملموس و المجرد ، الأرض و الحلم ، التجربة و الذاكرة في دلالة نهائية فياضة ، واللغة الشعرية لا تمت للحدثاة بصلة ما لم ترتبط برؤيا عن العالم و الإنسان يرتفع فيها نبض الخيال و ثراء التعبير بالصور¹ .

إن هذا الارتباط الوثيق بين لغة القصيدة و رؤيا الشاعر نجده بشكل واضح مع الشاعر محمود درويش ، الذي عبر عن رؤيا كلية بلغة فنية راقية من خلال أعماله الشعرية ، بعد أن أدرك أن خلق الرؤيا لا يكون تبعا لدرجة المقروئية ووضوح الفهم ، هذين المعيارين اللذان انطلق منهما في بداية أعماله² ، حيث دخل الميدان وهو ينشد :

أجمل الأشعار ما يحفظه عن ظهر قلب

كل قارئ ...

فإذا لم يشرب الناس أناشيدك شرب

قل ، أنا وحدي خاطئ ...³

لكنه أدرك بعد ذلك أنه لا بد أن يتغير شعريا حتى يبلغ منطقة الرؤيا⁴ ، لذلك نجده يتخذ من اللغة الشعرية أداة لخلق الرؤيا من خلال تكثيفها بالإيحاءات و الدلالات و الانحرافات ، وهذا ما نجده في جل أشعاره اللاحقة ومنها الجدارية ، يقول :

وهل أنا هو من يؤدي الدور

أم أن الضحية غيرت أقوالها

لتعيش ما بعد الحدثاة ، بعدما

انحرف المؤلف عن سياق النص ؟⁵

¹ ينظر : علي جعفر العلق : في حدثاة النص الشعري ، ص 28

² ينظر : صلاح فضل : أساليب الشعرية المعاصرة ، ص 235

³ محمود درويش : الديوان ، ص 65

⁴ ينظر : صلاح فضل : المرجع السابق ، ص 235

⁵ محمود درويش : الجدارية ، ص 24

أ- الإنحرافات و انفتاح الدلالة :

إن شعر الرؤيا يقوم على انكسار هيكل التعبير و تشظييه في انحراف اللغة ليصبح وسيلة لتوليد الدلالة و انفتاحها من خلال لا معقولية التركيب على وجه الخصوص¹ ، هذا ما نجده بارزا في مطولات محمود درويش مثل : " سرحان يشرب القهوة في الكافيتيريا " و " أحمد الزعتر " و " قصيدة الأرض " و " أرى ما أريد " ، إذ تقوم هذه القصائد و غيرها من أعمال الشاعر على لا معقولية العلاقات الداخلية بين الكلمات لتنتج الدلالة على رؤيا الشاعر ، يقول في قصيدته " سرحان يشرب القهوة في الكافيتيريا " ، من ديوان : (أحبك أولا أحبك : 1972)

و ما كان حبا

يدان تقولان شيئا و تتطفئان

قيود تلد

سجون تلد

مناف تلد²

فالشاعر يجعل الجمل في هذا المقطع قائمة على علاقات غير منطقية فيسند الفعلين " تقولان " و " تتطفئان " إلى " يدان " ، و يجعل القيود و السجون و المنافي " تلد " ، ليسمح للدلالة بالانفتاح و التعدد .

و تنتفتح " قصيدة الأرض " من الديوان السابق على فيض من الدلالات اللانهائية الناتجة على لا معقولية التراكيب ، يقول الشاعر :

¹ ينظر : صلاح فضل : أساليب الشعرية المعاصرة ، ص 240
² محمود درويش : الديوان ، ص 446

في شهر آذار ، في سنة الانتفاضة ، قالت لنا الأرض

أسرارها الدموية ، في شهر آذار مرت أمام

البنفسج و البندقية خمس بنات . وقفن على باب

مدرسة ابتدائية ، واشتعلن مع الورد و الزعتر

البلدي . افتتحن نشيد التراب . دخلن العناق

النهائي - آذار يأتي إلى الأرض من باطن الأرض

يأتي من رقصة الفتيات - البنفسج مال قليلا

ليعبر صوت البنات .، العصافير مدت مناقيرها

في اتجاه النشيد و قلبي

أنا الأرض

و الأرض أنت

خديجة ! لا تغلقي الباب

لا تدخلني في الغياب

سنطردهم من إناء الزهور و حبل الغسيل

سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل

سنطردهم من هواء الجليل¹

فالشاعر يفتتح القصيدة يسرد حادثة الفتيات الخمس اللائي كن يتوجهن إلى

المدرسة فقتلن برصاص الاحتلال ، بلغة شعرية راقية ، غير أنه لا يكتفي بتسجيل

¹ محمود درويش : الديوان ، ص 618

هذه الحادثة و توثيقها ، إنما تبرز رؤياه المتمثلة في استشراف المستقبل أين يطرد الاحتلال من بلاده ، وذلك من خلال توظيف الفعل المضارع " سنطردهم " الدال على المستقبل القريب ، وتكرار هذا الفعل دلالة على إلحاح الشاعر ، و تأكيده على طرد الاحتلال من بلاده .

أما قصيدة " أرى ما أريد " فيحملها الشاعر بالكثير من الانزياحات ، و تبلغ فيها لا معقولية التراكيب درجة عالية ، بطريقة مرهقة للقارئ ، فتتداخل الحواس و تتجاذب معطياتها على النمط السريالي مما يهيئ الأمر للرؤيا¹ ، يقول الشاعر :

أرى ما أريد من البحر ... إني أرى

هبوب النوارس عند الغروب ، فأغمض عيني :

هذا الضياء يؤدي إلى أندلس

وهذا الشراع صلاة الحمام علي...²

فالشاعر في الشطر الثاني من هذا المقطع يستعمل : "هبوب النوارس " بدل " تحليق النوارس " للدلالة على الضياع و التشتت ، فالهبوب يكون للرياح و العواصف ، لا للطائر ، وهي تمتاز بالاستقرار و اللاتبات ، لذلك فهو يريد أن يتجاوز هذا الواقع إلى واقع آخر ، فيغمض عينيه "فأغمض عيني " ، و هنا يستعمل الشاعر رمزين و هما : "أندلس" رمز الوطن المفقود ، و"الحمام " ، وهو رمز السلام ، و لعله السلام الذي ينشده في العالم الآخر .

وجدارية محمود درويش واحدة من تلك النماذج التي تنفتح فيها الدلالة بشكل كبير نتيجة لامعقولية التراكيب ، وهذا ما يصرح به الشاعر في مقطع منها ، يقول :

¹ ينظر : صلاح فضل : أساليب الشعرية المعاصرة ، ص 238

² المرجع السابق ، ص 239

وآثرت الزواج الحر بين المفردات

ستعثر الأنثى على الذكر الملائم

في جنوح الشعر نحو النثر¹

فمحمود درويش لا يخضع تراكيبه إلى المعقول أو المنطقي إنما يزواج بين المفردات تزواجا حرا ، مما جعل الانحراف سمة أسلوبية بارزة في الجدارية ، والانحراف في نظر كثير من النقاد " عدول عن الأصل بسبب المؤثرات النفسية والوجدانية والثقافية والفكرية والفلسفية التي يتأثر بها الشاعر " ² .

ولعل صراع الشاعر مع الموت واقترابه منه ، هو الذي جعل المعقول يشترك مع اللامعقول في لغة الجدارية ، أي أن خصوصية التجربة الشعرية هي التي أدت إلى خصوصية اللغة الشعرية ، فوجد الشاعر يعبر عن نفسه في ذلك العالم الخاص الذي عاش فيه وهو بين الحياة والموت بلغة خاصة ، يقول :

أرى السماء هناك في متناول الأيدي

ويحملني جناح حمامة بيضاء صوب

طفولة أخرى . ولم أحلم بأني

كنت أحلم . كل شيء واقعي . كنت

أعلم أنني ألقى بنفسي جانبا ...

وأطير³ .

ويعصف المكان ، فيقول :

¹ محمود درويش : الجدارية ، ص 69
² أحمد ويس: الانزياح في التراث النقدي والبلاغي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2002، ص 5
³ محمود درويش : المصدر السابق، ص 09

وكل شيء أبيض

البحر المعلق فوق سقف غمامة

بيضاء . و اللاشيء أبيض في

سما المطلق البيضاء . كنت ،

ولم أكن . فأنا وحيد في نواحي هذه

الأبدية البيضاء¹ .

فالمعقولة إذن نتيجة اللاوعي واللازمان واللاوجود ، يقول الشاعر :

لا شيء يوجعني على باب القيامة

لا الزمان ولا العواطف . لا

أحس بخفة الأشياء أو ثقل

الهواجس . لم أجد أحدا لأسأل :

أين أيني الآن ؟ أين مدينة

الموتى ، وأين أنا ؟ فلا عدم

هنا في اللاهنا ... في اللازمان ،

ولا وجود²

و نجد في الجدارية حشدا هائلا من الصور الشعرية "ولعل الكتابة بالصور هي القانون المحوري الذي تبنى عليه القصيدة المعاصرة بأسرها لأن الشعر ينتزل في دائرة الرؤيا ، و يكاد يتوحد بالحلم ، و الصورة هي الشكل الذي يستجيب

¹ محمود درويش : الجدارية ، ص 09

² المصدر السابق ، ص 10

للرؤى ، ذلك لأن العبارة الخبرية تقف قاصرة و لا تحيط بالرؤيا فيقوم الشاعر بتفجير العبارة من الداخل ، فتأتي الصورة بمثابة الصدى المباشر لذلك الانفجار¹ . من ذلك قول الشاعر :

خذني إلى ضوء التلاشي كي أرى

صيرورتي في صورتني الأخرى . فمن

سأكون بعدك ، يا أنا ؟ جسدي

ورائي أم أمامك ؟ من أنا يا

أنت ؟ كوني كما كونتك ، ادهني

بزيت اللوز ، كللني بتاج الأرز.

واحملني من الوادي إلى أبدية

بيضاء . علمني الحياة على طريقتك ،

اختبرني ذرة في العالم العلوي .

ساعدني على ضجر الخلود ، وكن

رحيما حين تجرحني وتبزغ من

شراييني الورود ...²

نقد أولى الشاعر اللغة الشعرية اهتماما واضحا في نص الجدارية ، فهو لا يبالي بحياته ، إنما يعتبر أن الحياة هي حياة اللغة وهو الأمر المهم بالنسبة إليه يقول :

¹ محمد لطفي اليوسفي : في بنية الشعر العربي المعاصر ، ص 93

² محمود درويش : الجدارية ، ص 45

أخاف على لغتي

فاتركوا كل شيء على حاله

وأعيدوا الحياة إلى لغتي ...¹

فاللغة وحدها ما يشغل الشاعر وهو في ذلك العالم الجديد :

لا أريد الرجوع إلى أحد

لا أريد الرجوع إلى بلد

بعد هذا الغياب الطويل

أريد الرجوع فقط

إلى لغتي في أقاصي الهديل²

ولعل ذلك راجع إلى كون اللغة في نظر الشاعر هي التي ستمنحه الخلود بعد موته وهي الرؤيا التي أرادها الشاعر من خلال نص الجدارية ، وذلك من خلال تكراره في أكثر من مقطع قوله :

هل الموت ما تفعلين بي الآن

أم هو موت اللغة ؟

خضراء ، أرض قصيدتي خضراء ، عالية ...³

¹ محمود درويش : الجدارية ، ص 66

² المصدر السابق ، ص 67

³ المصدر السابق ، ص 68

ب- المعجم اللغوي :

إضافة إلى مختلف الأساليب الشعرية التي ميزت أعمال الشاعر محمود درويش ، فقد تمكن من توليد معجم لغوي خاص به ليشمل كامل تجربة الوعي الفلسطيني ، و إدخال مفردات هذا المعجم في تراكيب دالة و جديدة ، هذه المفردات مستقاة من واقع فلسطين و عناصرها البشرية و طبيعتها ، فنجد الأب و الأم و الابن و الأخت و الحبيبة و المواطن و المهاجر و الأرض و الزيتون و البرتقال و الياسمين و السجن و المنفى الخ

إن هذه المفردات ترد أحيانا على حقيقتها ، وأحيانا باعتبارها رموزا لغيرها ، فالشاعر يدخل كلماته في نحوي شعري كامل أي في تركيب فني و وجودي ، ويزج بها في نسق علائقي و يشحنها بقيم جديدة.¹

و ما يهمنا من دراسة المعجم اللغوي هو تلك المفردات التي وظفها الشاعر على نحو تبرز معه رؤياه ، ولعل الطبيعة بعناصرها المختلفة خير مثال على ذلك ، فالشاعر لم يتخذ من الطبيعة غاية جمالية في ذاتها أو موضوعا مستقلا ، إنما الموضوع الأول و الأكبر عنده هو تجربته الإنسانية الوطنية ، لذلك فهو لا يهتم بالجمال المجرد للطبيعة ، إنما ما يهيمه هو حاجة الإنسان² ، لذلك نجده مثلا يفضل القمح على الورد ، يقول في قصيدة "عن الصمود" من ديوان (أوراق الزيتون : 1964) :

إنا نحب الورد

لكننا نحب القمح أكثر

و نحب عطر الورد

¹ ينظر : كاظم جهاد : محمود درويش في مجموعاته الشعرية الأولى وقصائده الأخيرة ، مجلة الكرمل الالكترونية ، ع90
www.alkarmel.org

² ينظر : رجاء النقاش : محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ، مطابع دار الهلال ، ط2 ، 1971 ، ص 168

لكن السنابل منه أظهر¹

فالقمح أحب إلى الشاعر ، مادام هو الذي يؤمن له حاجته ، فهو رمز الحياة و الاستمرار ، و يقول في قصيدة " يوميات جرح فلسطيني " ، من ديوان (حبيبي تنهض من نومها : 1970) :

هذه الأرض التي تمتص جلد الشهداء

تعد الصيف بقمح و كواكب²

فالأرض تعد بالحياة السعيدة (قمح و كواكب) بفضل دم الشهداء ، أي أن موت أولئك الشهداء سيهب الحياة و الحرية .

وهي الرؤيا نفسها التي عبر عنها الشاعر في جداريته ، فنجد الشاعر يوظف القمح والسنابل على اعتبار أنهما رمز للحياة والاستمرار ، بل انتصار للخلود ضد الفناء ، يقول :

وكلما صادقت أو

آخيت سنبله تعلمت البقاء من

الفناء وضده : " أنا حبة القمح

التي ماتت لكي تخضر ثانية . وفي

موتي حياة ما ..."³

ويعبر عن هذا المعنى ، مخاطبا الموت معلنا انتصاره عليه قائلا :

¹ محمود درويش : الديوان ، ص 41

² المصدر السابق : ص 346

³ محمود درويش : الجدارية ، ص 68

... ، لم

أرجع وقد طاشت سهامك مرة

إلا لأودع داخلي في خارجي

وأوزع القمح الذي امتلأت به روحي¹

فالقمح رمز الاستمرار والحياة عند الشاعر لذلك فهو يوصي بأن توضع

على التابوت بعد موته السنابل الخضراء ، يقول :

وضعوا على

التابوت سبع سنابل خضراء

إن وجدت²

فالشاعر يستمد رؤياه من يقينه بأن الحياة سوف تستمر و أن الأوضاع

لن تبقى كما هي عليه ، وذلك من خلال تصوير الطبيعة فهي : " لا تعرف الموت

فالحبة عندما ندفنها في الأرض لا تموت ، و إنما تثمر ، والشجرة التي تتعري

أغصانها من الأوراق تعود بعد ذلك للاخضرار في الربيع ، والماء يتحول إلى

بخار ثم ينزل مطرا من جديد " ³ ، لذلك فالموت ليس إلا حياة جديدة يقول :

... كم من الوقت

انقضى منذ اكتشفنا التوأمين : الوقت

والموت الطبيعي المرادف للحياة؟⁴

¹ محمود درويش : الجدارية ، ص 64

² المصدر السابق : ص 50

³ رجاء النقاش : محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ، ص 176

⁴ محمود درويش : المصدر السابق ، ص 80

ومن عناصر الطبيعة أيضا نجد " الحمام " الذي يوظفه الشاعر في كثير من الأحيان للدلالة على السلام ، يقول :

ويحملني جناح حمامة بيضاء صوب
طفولة أخرى¹ .

فهو ينتقل إلى عالمه الجديد ، عالم الطفولة والبراءة على جناح حمامة بيضاء ، كما نجده يوظف " الزيتون" ، ولعله من أكثر العناصر الطبيعية التي أولاها الشاعر أهمية في أعماله ، إذ نجده في كثير من المواضع ، و" لعل ذلك راجع إلى كون الشاعر من قرية بروة ، و هذه القرية بالذات ، توجد في منطقة تنتشر فيها أشجار الزيتون بكثرة ، بل تكاد أشجار الزيتون أن تكون هي الزراعة الرئيسية في تلك المنطقة ، ولذلك امتلأ وجدان الشاعر بالتعلق بشجرة الزيتون ...، و هناك معنى آخر يساند اختيار محمود درويش للزيتون ، و محبته له ، و الاهتمام به في شعره ، فالزيتون من الأشجار القليلة التي تحمل بالنسبة للوجدان الإنساني بعض المعاني الرمزية الكبيرة فالزيتون شجرة ترمز للسلام بالنسبة لكل إنسان على هذه الأرض ، و هي لا ترمز للسلام المناقض للحروب فقط ، إنما ترمز للسلام المرتبط بالحياة المعادي للخراب "² ، و في هذا المعنى يقول الشاعر في قصيدة مطر من ديوان (عاشق من فلسطين : 1966) :

يا نوح !

هبني غصن زيتون

ووالدتي حمامة ! ...³

فالشاعر في هذا المقطع ينشد السلام ، وذلك بتوظيفه " لقصة الطوفان" حيث ذكر أن سيدنا نوحا عليه السلام أرسل حمامة و هو في الفلك ليرى

¹ محمود درويش : الجدارية ، ص 9

² رجاء النقاش : محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ، ص 187

³ محمود درويش : الديوان ، ص 116

إن جفت المياه ، فعادت إليه الحمامة وفي فمها ورقة زيتون ، فلم أن
الأرض قد برزت ¹ .

وفي جداريته يقول :

فيا موت انتظرنى ريثما أنهى

تدابير الجنازة في الربيع الهش ،

حيث ولدت ، حيث سأمع الخطباء

من تكرار ما قالوا عن البلد الحزين

وعن صمود التين والزيتون في وجه

الزمان وجيشه ² .

فالشاعر وإن كان قد وظف الزيتون لينشد السلام فيما مضى ، فهو في
جداريته لا يريد أن يكون كذلك بعد موته ، فلعله يريد بدلا من ذلك الثورة .

كما يستعمل كلا من " البحر " و " السماء " للدلالة على الرحيل نحو

المجهول يقول :

وكل شيء أبيض ،

البحر المعلق فوق سقف غمامة

بيضاء . واللاشيء أبيض في

سماء المطلق البيضاء ³ .

¹ ينظر: سعيد جبر محمد أبو خضرة : تطور الدلالات اللغوية في شعر محمود درويش ، ص63

² محمود درويش : الجدارية ، ص 49

³ المصدر السابق ، ص 10

إضافة إلى هذه العناصر وظف الشاعر العديد من عناصر الطبيعة للتعبير عن رؤياه كالرياح ، الزهور ، البنفسج ، القمر ، الأرض ...، هذه العناصر و إن وردت أحيانا بمعانيها الحقيقية إلا أنها وردت أكثر كدوال تتفتح على غير مدلولاتها لتعبر عن رؤيا الشاعر .

ج- التكرار:

التكرار في الشعر العربي ظاهرة لغوية شائعة ، أو هو بالأحرى ظاهرة ذات وظيفة لغوية¹ ، وهو في رأي القدماء : " التوكيد وزيادة التنبيه والتفجع والتحسر وزيادة الاستعذاب ، والمرح والتلذذ والتشويق والاستغراب والتهديد والوعيد والتقرير والتوبيخ " ² .

ويعد التكرار من الظواهر اللغوية التي برزت في الشعر العربي الحديث والمعاصر ، ويدل على اهتمام المتكلم بالشيء المكرر ، وبهذا المعنى فهو ذو دلالة نفسية . والتكرار من شأنه أن يدخل في مفاصل الصورة والمعنى ليزيد عمقا في الدلالة ووضوحا في القصد ، وثرءا في تدفق الإيحاءات³ .

فهو إذن من الأدوات الجمالية التي تساعد الأديب أو الشاعر في تشكيل موقفه .

لقد شكل التكرار معلما مهما في تشكيل جدارية محمود درويش ، إذ نجده يكرر العديد من الكلمات والجمل ، بل حتى المقاطع الشعرية في كامل القصيدة ، من ذلك قوله :

سأصير يوما ما أريد⁴

إذ يتكرر ذلك خمس مرات ، ليؤكد أن صيرورته ستكون كما يريد في العالم الآخر ، يقول :

سأصير يوما ما فكرة (ص 12)

سأصير يوما ما طائرا (ص 12)

¹ ينظر: المتوكل طه : حقائق إبراهيم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ص 199
² ابن الأثير علي بن محمد : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق أحمد الحوفي ، دار النهضة ، القاهرة ، ج 3، ص 27
³ ينظر: وجدان الصايغ : الصور الاستعارية في الشعر العربي الحديث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط 1 ، 2003 ، ص 238
⁴ محمود درويش ، الجدارية ، ص 12

سأصير يوما ما شاعرا (ص 13)

سأصير يوما ما كرمة (ص 14)

فهو يؤكد على الخلود في العالم الآخر ، إذ سينتصر على الفناء بأفكاره لا بجسده ، كما سيصير طائرا لينبعث من الرماد كلما احترق ، وسيخلد أيضا بشعره فهو يؤكد على أنه سيصير شاعرا حتى بعد موته ، كما يريد أن يصير كرمة ليشرب من نبيذه العابرون وذلك دليل على الفرح والنشوة .

ويؤكد في النهاية على أن هذا الإصرار في الخلود ليس لذاته فحسب إنما هو للذات الجماعية لذلك نجده يقول في المرة السادسة :

سنكون يوما ما نريد¹

ونجد تكرار اللون الذي أراده الشاعر أرضا لقصيدته فتجيء خضراء نابضة بالحياة لمواجهة الموت ، يقول :

أرض قصيدتي ، خضراء عالية (ص 17)

خضراء ، أرض قصيدتي خضراء ، عالية (ص 21)

خضراء أرض قصيدتي خضراء (ص 33)

خضراء أرض قصيدتي خضراء (ص 41)

خضراء ، أرض قصيدتي خضراء ، عالية (ص 68)

فالشاعر وإن كان يريد الخلود لذاته ولشعبه من خلال التكرار السابق ، فهو يريده لقصيدته هذه المرة ، إذ جعلها خضراء ، واللون الأخضر هو لون الحياة والتجدد .

¹ محمود درويش ، الجدارية ، ص 16

كما نجد الشاعر يخاطب الموت مكررا خطابه ، يقول :

أيها الموت انتظرنني (ص 49)

فيا موت انتظرنني (ص 49)

أيها الموت انتظر (ص 50)

ويا موت انتظر (ص 51)

ليعلن بعد ذلك انتصاره عليه فيخاطبه قائلا :

أنت المسؤول عن الطيني في البشري

لا عن فعله أو قوله

هزمتك يا موت الفنون جميعها¹

ونجد الشاعر يستعمل التكرار ليعبر عن هواجسه ، إذ يرى أشياء متباينة

يختلط فيها الحاضر بالماضي ، وذلك من خلال تكرار الفعل رأيت ، يقول :

رأيت طبيبي الفرنسي (ص 29)

رأيت أبي عائدا (ص 29)

رأيت شبابا مغاربة (ص 30)

رأيت ريني شار (ص 30)

رأيت رفاقي الثلاثة ينتحبون (ص 31)

رأيت المعري يطرد نقاده (ص 31)

¹ محمود درويش ، الجدارية ، ص 54

والرؤية هنا تفارق الرؤية البصرية لتدخل في الرؤيا فالشاعر يرى هذه الأشياء في الحلم لا في الواقع وهي رؤى مطبوعة بالتشاؤم والخوف ، إلا أنها في الأخير تأخذ طابعا آخر ، عندما يقول :

رأيت بلادا تعانقني (ص 32)

فهنا يرى الشاعر بلاده برؤيا جديدة متفائلة ، فهي مفعمة بالحياة والفرح وهو ما يتطلع إليه .

إن محمود درويش من خلال استعماله التكرار في نص الجدارية لم تكن غايته جمالية فحسب ، إنما كانت غايته أكثر من ذلك ، وهي تأكيد رؤياه في أن الخلود لا بد أن ينتصر على الفناء ، وأن الشعب الفلسطيني سيظل في بلاده يحيى حياة هنيئة وأنه سيستمر دائما .